

قد يوحى عنوان هذا المقال أن كاتبه من أتباع المدرسة النفسية في دراسة الأدب ، وهذا غير صحيح ، ففي اعتقادي أن العمل الأدبي ، ككل ظاهرة فنية أخرى ، تكوين شديد التعقيد ، لا يمكن تفسيره تفسيراً كاملاً برده إلى عامل واحد في كل الأحوال . وإذا كان لا بد مع ذلك من تقديم عامل على بقية العوامل الأخرى ، فلعلنا أميل إلى تقديم العامل الاجتماعي ، دون إغفال ، بطبيعة الحال ، للقيم الجمالية التي لا يمكن اعتبار العمل أدباً ؛ أو فناً ، دون توفر حد أدنى منها .

غير أن هذا الميل لتقديم العامل الاجتماعي في الدراسة الأدبية ، لا يجعلني أغمض عيني عن بقية العوامل التي تتدخل في تشكيل العمل الأدبي وتجديد ملامحه ، بل إن كثيراً ما أتصور أن خير منهج يتبعه الناقد في دراسة الأعمال الأدبية ، ألا يكون له منهج صارم محدد من قبل يخضع له كل الأعمال الأدبية على اختلاف مذاهبها واتجاهاتها ، وأن يدع كل عمل يحدد له منهجه ووسائل دراسته وتفسيره ، على أساس من طبيعته والعوامل المختلفة التي تداخلت في تشكيله وتحديد سماته .

ومنذ زمن بعيد ، وشعر «نزار قباني» يستهويني بقرنته ، وجرأته ، وموسيقاه الزاعقة ، ويغريني بالإقدام على دراسته ، ومحاولة تبين خصائصه ومقوماته . وحين أعدت قراءته أخيراً تبين لي بوضوح أنه لا سبيل إلى فهمه فهماً متكاملًا دون الاستعانة بنظريات علم النفس الحديث ، وبالذات «فرويد» عن الغريزة الجنسية ، ومراحل نموها وانحرافاتها المختلفة .

وليس هذا بالأمر الغريب ، فكل من كتبوا عنه من قبل اتفقوا على